مغامرات هاكلبري فن
قراءة نقدية

رواية هاكلبري فن رواية رائعة حقا، ويكمن جل استمتاعي بها أنها وفي نهاية الأمر وبعد صراعات كثيرة بين الأهواء والعقائد تكون الغلبة في النهاية للون الأبيض وللخير المجسد في الطفل هاكلبري؛ يعرض الكاتب من خلال الرواية ازدواجية المجتمع وزيفه وتمسكه بالخرافات والعادات والتقاليد البالية مرورا بالتعصب السائد في المجتمع والطبقية وسيادة الرأسمالية. يعرض الكاتب الصراعات النفسية الكثيرة بداخل أبطال الرواية ما بين الخير والشر ونصرة الحق أو ظلام الهوى الذي من الممكن أن ينزع من الإنسان إنسانيته نزعا ويتركه وهو خائر لا يعرف ماهيته ولا حقيقة وجوده في هذه الدنيا.

وتجسد الرواية أيضا صراع الإنسان مع قضية الثأر وانصياعه لها، والخضوع للمجتمع على طريقة هذا ما وجدنا عليه آباءنا الذي يجعل آمال وأحلام الشباب بين شقي الرحى، ومع الزمن من الممكن أن يتناسى المرء السبب الحقيقي وراء الثأر، وينسى شرف الدفاع الشرعي المبرر عن الأرض والعرض والمال فيدور بساقية الثأر وهو أعمى وأخرس وبلا ضمير، ولا يشعر أن أول المتضررين من مسلسل الثأر البغيض هو نفسه بعدما داس أحلامه في غد أفضل.

بالرغم من حداثة سن الطفل هاكلبري فن إلا أن الطبيعة منحته صفات كثيرة يستطيع بها أن يتكيف مع ظروفه المحيطة الصعبة وواقعه الأليم؛ هاكلبري من وجهة نظر المؤلف كان له قدرة كبيرة على التحايل على واقعه الذى لا ذنب له فيه بداية بموت أمه وهو مازال صغيرا وإدمان والده على الخمور، وتبنيه من قبل سيدتين في منتصف الخمسينات لا يتفهمان متطلباته كطفل في الحرية والانطلاق واللعب مع الأقران، وأن حرية المرء تصنع إبداعه واتقاد ذهنه بالعلم والمعرفة وصفاء روحه ونفسه وبالتالي توجه فطرته السليمة إلى الصواب والخطأ ..

وكأن الطبيعة سلحت الطفل هاكلبري بدعائم وصفات تجعل شخصيته لاتعكس كثيرا ما نبت فيه وسقى منه وأحس به ومنها مثلا حبه للمرح والانطلاق واختلاطه بأقرانه واجتماعياته العالية جدا حتى مع الأشخاص الذين يقابلونه لأول مرة فطفل في هذه السن الصغيرة ألفنا نحن سكان المدن الخرسانية المنفصلة عن بعضها اجتماعيا منه على الحياء المذموم والرهبة من الآخر وعدم القدرة على إجراء حوار أو التحدث من الأساس إلا مع والدته أو والده أو إخوته ومعلمة الفصل وبعض الأصدقاء المقربين، وكان هاكلبري يتمتع بذكاء فطري في إدارة الأمور وتسخيرها

لصالحه بشكل افتقدناه هذه الأيام مع أولادنا جيل الانفتاح والعولمة وكتابة الفروض المدرسية مستخدمين برامج الكمبيوتر المختلفة للكتابة والعرض!! كان من الممكن أن يؤثر واقع هاكلبري فيه هو أو من كانت له مثل ظروفه ويجعله منطويًا على نفسه وخجولاً وهو ما لم يحدث!!

هناك أيضا عدم تأثره العاطفي بالمحيطين باستثناء صديق رحلته جيم ؛ فهاكلبري كان غير متفاعل نفسيا مع من حوله ولا يتأثر بوداع الأشخاص، ففي الرواية يقابل عدة أناس ويقضى معهم الكثير من الوقت ويألفهم، ومع ذلك لا يتأثر كثيرا بمفارقتهم بإرادته أو محمولا على ذلك.. من الممكن أن تكون نشأته الأسرية غير المستقرة هي ما ولدت فيه لا شعوريا جدارا نفسيا مانعا للارتباط العاطفي بأي من بني البشر، فهو لا يعلم إذا كان سيبدأ يومه الجديد وهم معه أم لا ؟ حتى مع السيدتين اللتين أنقذتاه من براثن أبيه المدمن كان لا يفتأ يثير الشغب ويكثر الهرب ولا يطيع الأوامر، لأنه تعود أن تكون كل تصرفاته تبعا لأهوائه وليس تبعا لأهواء أحد آخر الله وحده من يعلم إذا كانوا سيستمرون في سيل الحب والحنان معه أم سينقطع فجأة لأسباب هو لا يعلمها، وهذا رد فعل طبيعي لشخص في مثل ظروفه الحياتية.

من وجهة نظري إن الأطفال أمثال هاكلبري فن غير موجودين في حياتنا الواقعية وإن الرواية من النوع الخيالي المتفائل إن جاز التعبير، وذلك لأن وجود أشخاص مثل هاكلبري من خيال المؤلف المحض، وإلا ما كنا نعانى في مجتمعاتنا اليوم من تبعات الفساد والتعصب والغضب الجامح واللاإنسانية واللادين؛ الذي يكون من أول أسباب تولده في المجتمع عدم الاهتمام بتربية النشء الذين هم نواة المجتمع وأساسه، فإذا صلحوا صلح المجتمع كله، وإذا فسدوا فسد المجتمع، والظروف الاجتماعية والاقتصادية المتساوية هي التي تشكل جيلا سليما نفسيا غير حانق أو ثائر أو رافض للصواب الذي لم يجلب له في الماضي إلا الألم؛ والذي نشأ في بيئة ذات جو نفسي فاسد يعش أبد الدهر في صراع نفسي عصيب ومنهك ومميت ما بين الصواب والخطأ والأغلب أنه يجنح إلى الأسهل والأكثر عملا ممن حوله والأكثر راحة وهو الخطأ.

في رأيي أن من تكون ظروفه الاجتماعية مثل هاكلبري فمن الصعب جدا بل ومن النادر أن يكون ذو نفسية سليمة ومتسقة مع مجتمع اللهم إلا من بعض الاستثناءات طبعا القاعدة العامة أن يولد مرارة اليتم والحرمان إحساس الضياع وعدم الأمان والصدمات المتتالية في مجتمع ورموز وقدوة عنده كالوالدين مثلاً وفي حالة هاكلبري في الأب يولد كل هذا شخصية معدلة وليس التعديل الذى اقصده جيبنيا ولا وراثيا ولا فطريا خلق الإنسان به ولكن التعديل

الذى اقصده هو نتاج مجتمع لم يعطى له حقه منذ نعومة أظافره وأناس كان هو أحد الهوامش في حياتهم ولحظة حب حقيقي لم ينعم بها يوما واحتياجات لم تلبى ولم يلق لها بالاً.

الاستثناءات التي أتحدث عنها في أناس قرروا بعدما حرموا وذلوا وقاسوا في هذه الدنيا أن يكونوا أداة للحب والاحتواء والبذل والحنان بكل صوره، ويكون الهدف الأساسي لهم ألا يتعرض من يحبون مثل أولادهم مثلا لمثل هذه الظروف وليس أولادهم أو المقربين منهم فقط بل كل من كانت لهم مثل ظروفهم في المجتمع فيتولد العطاء ورعاية الأيتام والتبرع لصالح المستشفيات العامة والجمعيات الخيرية .. وكل هذا العطاء حتما يخفف من ذكريات الماضي التعيس ويجعله في طي النسيان فيعيش الفرد سوى نفسيا ومتعافي لأنه ببذله وعطائه أحس أن كل الهم الذي كان على عاتقة أصبح هباءً منثورا .

وأتوقع أن يكون هاكلبري من هؤلاء الناس المتمتعين بإرادة قوية ونفس صافية وقلب كبير وأن يستطيع أن يكون ينبوع للحب ولكن ينبوع من نوع خاص...ينبوع بلا منبع، ولكن بمئات بل آلاف المصبات والروافد...